

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ




جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى، 2022

ISBN 978-614-474-091-0

بيت الكاتب للطباعة والنشر

www.islamona.center

baacenter 

961 76 862741 

00961 1 477233 

البحث عن شهاب

أمل عبدالله



مركز باء للدراسات

شكْر

تشبه الرواية في رحلة كتابتها، طفلا حديث العهد بالمشي. تارة يمشي باتزان فنشجعه، وتارة يترنح فننبهه، وتارة يتعثّر ويقع، فنسارع إلى الأخذ بيده كي يقف ويعاود المشي! كل الشكر لأستاذي السيد عباس نور الدين، الذي فعل ذلك بكثير من العناية والصبر.

الشكر أيضاً لصديقتي الغالية دانية هاشم، التي تفضّلت بكل محبة بتزويدي بما احتجت إليه من مراجع منذ اللحظة الأولى لكتابة هذه الرواية.

وأخيراً وليس آخراً، كل الشكر لأمي الحبيبة ولأحبتني طارق وعلا وهاني ونورا.. عائلتي الجميلة التي تؤنس وحشة الكتابة وتشاركني بهجتها.

الإهداء

أبي

كان وسيبقى سحابة تظللنا في شمس الظهيرة..
وتقطر علينا ندى كل صباح.



1

تموز 2006، دبي.

«اسمي شهاب أيوب..».

توقّفت أليسار عن القراءة، ونظرت إلى الصورة أعلى المقال. غشّى الدمع عينيها فزاغت أمامها ملامح الوجه، لكن نظرة العينين بقيت نقّادة. ثمانٍ وعشرون سنة انقضت، ولا تزال هذه النظرة قادرة على أسرها.

«.. كنت في الرابعة والعشرين من عمري حين فُقدتُ. حدث ذلك في شهر آب سنة 1978. كان المناخ ملائماً جدّاً للنزهة البحرية التي وعدت خطيبتي بها. غادرتُ منزلي في دير الزهراني عند الساعة صباحاً، متوجّهًا نحو صيدا. كان ينبغي أن أصل في أقلّ من نصف ساعة، لكن النهار انقضى ومن ورائه نهارات كثيرة، وخطيبتي لا تزال تنتظر تلك النزهة!».

قبل حوالى شهر، تفاجأت أليسار أحمد بصورة خطيبها السابق تتوسّط صفحة في جريدة «أخبار اليوم» اللبنانية. سارعت يومها، إلى الاتصال بمكتب التحرير في بيروت. قيل لها إنّ هذا المقال بلسان الحال، هو باكورة مقالات تنشرها الجريدة، بالتعاون مع جمعية أهليّة، تُعنى بتقفي آثار من فقدوا خلال الحرب اللبنانية، والذين قارب عددهم

سبعة عشر ألف مفقود.

«نتواصل مع أفراد العائلة ليمدونا بمعلومات حول المفقودين»،
أجابوا في الجمعية عندما اتّصلت بهم.

لم تكن تدري مَنْ قَدّم هذه المعلومات مِنْ أقرباء شهاب. خَمّنت
أنّه شقيقه الأصغر. لكن أياً كان ذاك القريب، فهو يجهل حقيقة ما
جرى ذلك اليوم، قبل أن يلقي شهاب مصيره المجهول. ثمان وعشرون
سنة انقضت، وهي تنتظر أن يُكشف ذلك المصير. ثمان وعشرون سنة
انقضت، وهي تخشى أن تُكشف تلك الحقيقة!

توجّهتْ إلى دورة المياه المجاورة لمكتبها. حدّقت إلى المرأة،
مسحت خطّ الكحل الرفيع الذي سال من جفنها، عدّلت تسريحة
شعرها، ثم رجعت.

أدارت حاسوبها، وبدأت بتفقّد بريدها الإلكتروني.

بعد لحظات، حضرت صديقتها رحاب لتسألها عن الاتصال المنتظر.
أومأت أليسار برأسها سلّياً.

«لا تقلقي، سيتصل بنا حتماً! لقد قدّمت له عرضاً مناسباً جداً..»،
أجابت، فإذا بجرس الهاتف يرنّ. «قلت لك!»، تابعت أليسار بابتسامة
فارقتها ما إن أدنت السمّاعة من أذنها. حاولت أن تجيب، لكنّها عجزت
عن أن تحمّل الهواء ردّاً، فحرّكت شفّتها في صمت.

«هل أنت على ما يرام؟ من المتصل؟»، همست رحاب وهي ترى

اللون ينسحب من وجهها.

«ألو.. ألو.. أليسار، هل تسمعيني؟».

غار قلبها وتسارعت أنفاسها وهي تسمع صوت شقيقتها الآتي من
ماضٍ بعيد. تنحنحت وابتلعت ريقها بصعوبة.

«ألو..»، نطقت برَدَّ جاف.
«أليسار أنا..»، اختنق الصوت ثواني معدودات.
بقيت أليسار صامتة.
«أعرف أنك لا ترغبين في سماع صوتي. لولا الخبر الذي أحمله لك
- صدَّقيني - ما كنت لأرغب في سماع صوتك أنا أيضًا!».
«عمَّ تتحدثين يا ماريانا؟! أيِّ خبر؟!». «شهاب..»
«شهاب! ماذا عن شهاب؟! هل من جديد؟ هل عرفتم شيئًا؟»،
هتفت أليسار ملتفتة نحو رحاب.
«أجل..».
«أجل ماذا؟! تكلممي يا ماريانا! ماذا عرفت عن شهاب?!».
«أليسار، شهاب لا يزال حيًّا!».

2

تموز 2006، بيروت.

غادرت أليساار المصعد متوجّهة نحو مكتب الاستعلامات في الفندق. «الرجاء إعلامي حين تصل هذه السيّدة، سأكون في صالة الطعام»، قالت وهي تكتب اسمها واسم الضيفة المرتقبة على ورقة صغيرة. لم تكن تتناول فطورا في العادة، لكنها شعرت بالجوع. يشعرها القلق بالجوع، وهو لم يفارقها منذ اللحظة التي اتصلت بها ماريانا.

«سأحجز لك تذكرة سفر إلى بيروت يوم السبت»، قالت لها رحاب بعد ذلك الاتصال الذي تلقّته أليساار من شقيقتها ماريانا. «أجننت؟! تريدني أن أنتظر حتى يوم السبت؟!»، أجابت أليساار وهي تتصل بشركة الطيران لتحجز مقعدًا على أول طائرة متوجهة إلى لبنان.

«أليساار، اسمعيني من فضلك! لقد انتظرت كل هذه السنوات، لن يضرّك أن تنتظري بضعة أيام! لقد رجّح الدكتور توفيق أن يكون لقاؤكما نهاية هذا الأسبوع. احضري اللقاء، ثم اذهبي حيث تشائين. أرجوك لا تدعي حماسك تضيّع كل الجهد الذي بذلناه!». «سأعود قبل الموعد، لا تقلقي»، أجابتها أليساار.

«لكنك لا تعرفين ماذا ينتظرك في لبنان، قد تضطرين إلى البقاء،
أنهي عملك واذهبي!»، رجتها رحاب.
«تحدثين كأنني مسافرة إلى القطب الشمالي!».
«أليسار، تعلمين أنني لا أستطيع إنجاز هذه الأمر من دون مساعدتك.
لقد وعدتني!».
«وما زلت عند وعدي. لم يتغيّر شيء، سترين ذلك بنفسك حين
أعود». «وماذا عن كمال، هل فكّرت به؟!»، سألتها رحاب في محاولة يائسة
لثنيها عن السفر قبل إتمام المهمة.
«وما علاقة كمال بما نقول؟». «ما علاقته؟! أنسيت مقابلته الأخيرة على التلفاز، وهجومه على
نشاط الجمعية الثقافي، وتحديدًا على هذه الجائزة؟ لن يحلم كمال
بهدية أفضل من فشلنا في ضمّ جابر توفيق إلى لجنة التحكيم! هل
فكّرت بذلك؟!». «استذكرت أليسار جدالها مع رحاب في طريقها إلى صالة الطعام.
انتابها الضيق من احتمال فشل الاتفاق. بدأت الأفكار السوداء تتسرّب
إلى عقلها، لكنّها تمالكت نفسها وقرّرت التركيز في ما جاءت إلى لبنان
من أجله. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة، ومائدة الفطور على وشك أن
تُرفع. سكبت فنجانًا من الشاي وتناولت لقمة من «منقوشة» صعتر،
وهي تفكّر بقاء ماريانا المرتقب.
«سيّدة أحمد، ضيفتك وصلت وهي تنتظرك في البهو»، قال موظف
الاستعلامات قاطعًا حبل أفكارها.

تبدّل لونها. أخذت رشفة أخيرة من فنجانها، وأومات برأسها إيجاباً. تناولت منديلاً ورفيئاً، مسحت يديها ونظّفت أسنانها من بقايا الصعتر، ثم أخذت نفساً عميقاً وتوجّهت نحو البهو.

تجاوزت سيّدة على مقعد منفرد تتفقد هاتفها الخلوي، وجالت بنظرها على الأرائك ذات اللون الخمرّي والأبيض، والتي توزعت على شكل أنصاف دوائر. كانت الأرائك خالية إلا من رجل يقرأ جريدة ويشرب القهوة. وأمام الواجهة الزجاجية المطلّة على الحديقة الخارجية، جلست سيّدة. كانت تضع رجلاً على رجل، وتحرك رأسها على وقع معزوفة لعمر خيرت، سرت نغماتها في القاعة الفسيحة.

«أتكون ماريانا؟»، تمتم أليسار وهي ترسل نظراتها لاستيضاح معالم الوجه الذي غطّت خصل شقراء جانبا منه. همّت بالسير نحوها، لكنّها سمعت صوتاً آتياً من ورائها. «أليسار!».

استدارت بسرعة إلى الخلف لتجد امرأة بحجاب عسليّ وثوب بنيّ فضفاض تحدّق إليها. كانت تلك، السيّدة ذاتها التي تجاوزتها أليسار حين دخلت البهو.

«ماريانا!»، همست أليسار محدّقة بعينين متسعيتين إلى الوجه الذي كان في الماضي، صورة عن وجهها.

دمعت عينا ماريانا، وارتسمت بسمّة باهتة على شفثيها سرعان ما خبت. آخر صورة رأتها لماريانا بعد سفرها، كانت في حفلة زفاف ابنة عمّتها. شعر كستنائيّ مسدل على الكتفين، ابتسامة مبهجة، فستان قصير براق، تلك هي التفاصيل التي حفظتها في ذاكرتها عن شقيقتها الصغرى. ظنّت أنّها ستجدها على هذه الهيئة، أو ربما على هيئة شبيهة

بها، فإذا بالتى أمامها ترتدي حجابًا لا يُظهر سوى وجهها وكفيها! تآقت لأن تحتضنها، لكنّها جنبت. اكتفت بقبلة على خدّها فدبّ الصقيع في أطرافها، وتراجعت خطوة إلى الوراء من دون أن تقول شيئًا. كانت القبلة نفسها التي ودّعتها بها قبل سفرها، لكنّ خدّ ماريانا المبلّل بالدموع آنذاك، لم يعد كذلك. يومها، ما كان لدموع ماريانا الغزيرة مكان في قلب أليساّر المثلث بالخبيّة، إذ تركتها وحيدة في مواجهة أبيها. وفي ما بعد، حين أدركت خطأها في تحميل أختها الصغرى ما لا تطيق، كان الوقت قد فات لاستعادة صلتها بها.

لكن الفرصة حانت الآن لوصل ما انقطع، ولإستعادة دور الشقيقة الكبرى الذي افتقدته طيلة هذه السنوات.

«فلنصعد إلى غرفتي»، قالت أليساّر برقة وهي تغالب دموعها. «علينا أن ننتظر «شهاب»..»، أجابت ماريانا من دون تفكير. وقبل أن تستدرك، كانت أليساّر تبحث عمّا يساعدها على حفظ توازنها. اتكأت على كرسي، وهتفت بنفّس مخطوف: «شهاب هنا؟!». «أف! لعن الله الشيطان! أقصد ابني «شهاب»!»، سارعت ماريانا إلى القول، وهي تساعدها على الجلوس. «ذهب ليوقف السيّارة، وسيوافينا بعد لحظات».

أغمضت أليساّر عينيها لحظات محاولة التقاط أنفاسها. «أسميته «شهاب».. لماذا؟».

«ستعرفين حين ترينه.. ها قد وصل».

نظرت أليساّر إلى حيث أشارت ماريانا. ضغطت على ذراع شقيقتها واستجمعت قوّتها لتقف. راقبت بنظرات زائغة الشابّ الذي تقدّم نحوها بخطى رشيقة.

«السلام عليكم، عذراً عن التأخير. الموقف مزدحمٌ جداً!».
أصغت أليسار إلى صوته، وعيناها متعلقتان بالبريق الذي شعّ من
عينيه.

«لكن كيف؟»، همست بما تبقى لديها من نفس.
وقبل أن تسمع جواباً عن سؤالها، مادت بها الأرض، وفي أقلّ من
ثانية، اختفى البريق وغرقت في ظلمة مطبقة!

3

تموز 2006، بيروت.

جلست أليسار وحيدة على شرفة غرفتها في الفندق تراقب الغروب، وتنظر من وقت لآخر إلى المفكرة الجلدية التي في يدها، تقلبها من دون أن تفتحها. أدنتها من وجهها فتسللت منها رائحة عطر «أولد سبايس» الذي كان والدها يستعمله. ارتجف قلبها، فحبست نفسها وأسرعت تبعدها.

«لن يكون الآتي أصعب مما مضى»، كانت تطمئن نفسها قبيل لقائها ماريانا. تهيبت لقاءهما لأسباب كثيرة، كانت واثقة بقدرتها على تجاوزها كلها. لكنها الآن تشعر بأن القوة التي راكمتها طيلة سنوات غربتها، بدأت تتسرب من ثقب في قلبها ظننته رقيق، وبأن تلك الفتاة التائهة الضعيفة التي كانت فيها قبل سفرها إلى كندا، توشك أن تعود إلى الحياة.

قبل أسبوعين، ما كانت مذكّرات والدها لتعني لها شيئاً، فوالدها هو اسم يُحيي ذكره آلاماً أرادتها دفينه وحسب! لكن الكلام الذي قاله جابر توفيق بدّل موقفها.

قبل مقابلة جابر توفيق، كانت متيقّنة بأن الماضي عبء تخفّفت منه، لكن كلامه أنبأها أنه جزء منها، لبث طويلاً في العتمة ينتظر

التفاتها إليه، وحين يس، تمثّل أمامها دفعة واحدة!
«أليسار أحمد.. من لبنان؟»، سأها جابر توفيق بعد أن عرّفت
بنفسها.
«نعم».

«لبنان أرض العزّة! كانت آخر زيارة لي بعد التحرير، أواخر سنة
2000. جُلْتُ في الجنوب وزرت معتقل الخيام. لا شك في أنّك زرتة».
المرّة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى بيت جدّها في الخيام، كان
المعتقل لا يزال ثكنة عسكرية للجيش اللبناني. مرّت هذه الخاطرة في
فكرها قبل أن تجيبه.

«الحقيقة، أنا لم أسافر إلى لبنان منذ سنوات عديدة»، أجابت ثم
أردفت وهي ترى ارتفاع حاجبيه: «بسبب ضغط العمل وانشغالاتي
الكثيرة».

«حقاً؟! عجيب! ولا حتى لزيارة عائلتك؟».

أرادت أن تبدّل الموضوع، لكنّه تابع محدّقاً إلى الفراغ: «كنت أعرف
شخصاً من عائلة أحمد، لا أستطيع تذكّر اسمه الآن. التقينا في مخيم
تدريب هنا في الأردن. كان ذلك في السّتينيات، ربّما قبل أن تولدي».
صمت قليلاً، ثم نظر إليها: «كان مقاوماً بحق، لا يهاب شيئاً! للأسف،
فقدت الاتصال به بعد عودته إلى لبنان. ربما يكون من أقاربك».
أومأت برأسها سلّياً: «للأسف يا دكتور توفيق، ليس في عائلتي رجل
بهذه المواصفات».

«فعلاً، للأسف! المهم.. أخبرتني مساعدتي أنّك ترغبين في التحدّث
إليّ بشأن جائزة أدبية».

لشهرين مضياً، أصبح الدكتور جابر توفيق، الناقد الأدبي المرموق،

موضع اهتمام أليسا، بعد أن قرّرت جمعية كئبان إنشاء جائزة للرواية العربية. لم تكن كئبان تهتم بالشأن الأدبي وحسب، فهي، كما ورد في بيانها التأسيسي، «جمعية تُعنى بتوفير فرص لتطوير «الشباب العربي» وتنمية قدراته في شتى المجالات». وهي اشتملت أيضًا على قسم للدراسات الاجتماعية، تولّت أليسا إدارته.

«إن كان هناك أحد يستطيع إقناعه بترؤس لجنة التحكيم، فهو أنت!»، قالت لها رحاب التي تولّت تنظيم الجائزة. لم يكن إصرار رحاب على ضمّ جابر توفيق إلى لجنة التحكيم لسمعته الحسنة في الوسط الأدبي ولدى القراء وحسب، وإنّما لالتقاء مواقفه الطاعنة التي أفقدت العديد من الجوائز الأدبية مصداقيتها.

وافقت أليسا برغم انشغالاتها على طلب رحاب، وخصّصت جزءا من وقتها للتعرف إلى تفاصيل حياته والاطلاع على كتبه التي تکرّر فيها الحديث عن «مؤامرة صهيو-عربية تهدف إلى مسح اللغة العربية». أعادت أليسا، وهي على متن الطائرة التي أقلّتها من دبي إلى الأردن، تصفّح ملفّ جابر توفيق الشخصي الذي أعدّته رحاب. كذلك فعلت وهي في السيارة التي أقلّتها إلى مكتبه في شارع الملك حسين، وسط عمّان. وكما في المرّات السابقة، وصلت إلى خلاصة مفادها أنّ «جابر توفيق» حوّل ساحة القتال الحقيقية إلى ساحة «افتراضية»، بعد إصابة أدت إلى بتر رجله وإنهاء عمله المقاوم، لتصبح اللغة العربية قضيته الأولى وفلسطينه!

بدأت أليسا كلامها بالحديث عن واقع اللغة العربية المتردّي، وتراجع دورها في حفظ الهوية العربية. لكنها خلافا لما ذكره في كتبه، لم تعزّ الأمر إلى مؤامرة غربيّة، وإنّما إلى غياب خطط رسميّة واقعيّة

تعيد ثقة «الشباب العربي» بلغته ودورها البناء في حياته.
«وجمعية كثران أخذت على عاتقها هذا الدور؟»، سألتها بنبرة
مشكّكة.

«صحيح! والأمر لا يقتصر على هذه الجائزة وإثما نشاطها يشمل..»
«لكنك حتمًا تعرفين ما يقال عن هذه الجمعية، و«الأجندات»
الخفية التي تتبناها. «تبييض ثقافة»، أظنه المصطلح الذي أطلقه كمال
زيدان على أنشطة هذه الجمعية»، شرح مقاطعًا.
ابتسمت أليسار وأجابت بنبرة ساخرة:

«لطالما كان السيد كمال زيدان مبدعًا في مصطلحاته، ليته كان
مبدعًا في وضع الخطط التي تحسّن واقع الثقافة التي يدعي الحرص
عليها! ألا تتفق معي يا دكتور توفيق أننا مولعون بتوهين أيّ محاولة
تغيير في واقعنا المتردّي، بحجّة وجود «أجندات» خفية؟».
«وبرأيك، أهذه أوهام وحسب؟!».

«أنا لا أنفي وجود «أجندات» خفية أو مؤامرات، وإن كان في
الغالب غير مؤكّد، لكن ألا يدفعنا هذا التفكير إلى رفض أي مبادرة
لمساعدتنا على تبديل واقعنا؟ ثم، لماذا لا يكون لنا نحن العرب
«أجندات» خفية أيضًا؟! لماذا لا ندبرّ مؤامرة خاصة بنا بدل الركون
إلى دور الضحية؟».

ضحك وأجاب: «تعرضين عليّ ترؤس لجنة تحكيم، أم الاشتراك في
مؤامرة؟!».

«لنقل إنّي أعرض عليك الاشتراك في مؤامرة إنقاذية. أنا أدعوك
لتجعل هذه الجائزة في خدمة قضية اللغة العربية التي تحرص عليها».
«ولمّ لا تكون دعوتك هذه من أجل أن تجتنبني شرّي، لتشتري

سكوتي عن أيّ خطر يحمله هذا المشروع؟!»، قال وهو يشعل سيجارة. «وهل في فضحك للأخطار شرٌّ؟!»، ردّت محاولة كتم انزعاجها من الدخان الذي نفثه في وجهها، ثم التفتت إلى العصا المسندة إلى طاولة مكتبه. حدّقت إليها ثواني ثم تابعت، معاودة النظر إليه: «دكتور توفيق، الجلوس على التلّ طريقة ممتازة لمراقبة مسار الحرب، لكنه لا يبذل شيئاً في نتيجتها. أنا أعرض عليك الفرصة لتعود مقاتلاً!».

«مقاتل؟!»، قال رافعا حاجبيه، وعقب: «حسناً، وما الذي يضمن عدم تعرّض هذا المقاتل للخيانة?!».

«أنت يا دكتور توفيق! أنت ستكون الضمانة! أنا واثقة بقدرتك على منع أي محاولة لحرف مسار هذه الجائزة، فما قولك؟».

أطرق برهة، ثم أخذ نفساً من سيجارته، أتبعه بكحّات متلاحقة. وحين التقط أنفاسه، قال منهيّاً المقابلة: «أحتاج إلى التفكير في الأمر قبل إعطائك قراري النهائي، فرصة سعيدة أستاذة أليسار».

«خذ ما تشاء من وقت، سأنتظر موافقتك بفارغ الصبر»، أجابت بابتسامة واثقة، ثم استأذنت للانصراف. كانت على وشك أن تخطو خارج مكتبه، حين وقع على مسمعها اسم جعلها تجمد في مكانها. «رضا أحمد!».

استدارت نحوه.

«عفوا دكتور توفيق، هل قلت شيئاً؟».

«الرجل الذي حدّثتك عنه، كان اسمه رضا أحمد».

امتقع لونها لسماع الاسم.

«كان على ما أعتقد أستاذ تاريخ»، تابع.

«هل أنت واثق؟»
«نعم، رضا أحمد، كان ذاك اسمه. كان رجلاً استثنائياً.. هل تعرفينه؟»
ما كانت أليسار تعرفه هو أنه اسم والدها.

4

تموز 2006، بيروت.

كانت أغلب ثياب أليسا لا تزال مرتبة على حالها في حقيبة سفرها. لم تكن تحتاج إلى أكثر من بضع دقائق كي تجهز، قبل التوجه إلى المطار.

حين هاتفتها ماريانا لتخبرها أن «شهاب» ما زال حيًّا، توقعت أن تجد عندها حلاً للغز الرجل المقاوم الذي يحمل اسم أبيها، على الرغم من أن معرفتها بموقفه المعادي للمقاومة كانت ستحسم الأمر. كان بإمكانها اعتبارها صدفة عجيبة، فليس غريباً أن تتسع عائلة «أحمد» لشخص آخر حمل اسم والدها، وامتهن تدريس التاريخ مثله. لكن الكلمات التي أضاءت في ركن مظلم في ذاكرتها، حالت دون ذلك.

«والدك صديق قديم»، قال لها أبو شريف، المسؤول البارز في منظمة فتح، الذي التقته في صيدا بعد اختفاء شهاب. عادت في ذلك اليوم إلى أبيها حاملة وعدًا قاطعا بمعرفة مصير شهاب خلال وقت قصير، وعلامة استفهام كبيرة حول تلك الصداقة المستهجنة.

«صديق قديم! يا له من خبيث!»، أجابها أبوها جاهداً كي لا يزلّ لسانه بكلام لن يوقظ فيه سوى مشاعر المهانة والقهر. «ما يريد هو إذلالي وحسب، وأنا لن أمكّنه من ذلك لأي سبب، حتى لو تعلّق الأمر

بعودة شهاب سالمًا!»، صاح حين أخبرته أنه ينتظر رؤيته في لقاؤهما المقبل.

كانت تلك المرّة الأولى التي ترى والدها على هذه الصورة. طوال سنوات، لم تكن علاقتها بوالدها جيدة، خصوصاً بعد وفاة والدتها. لكن في أكثر المواقف احتداماً بينهما، لم يكن غضبه يطفئ النظرة الحانية التي أضاعت عينيه الزرقاوين، والتي جرّأها في كثير من الأحيان عليه. لطالما امتزج غضبه بالكثير من الحب لها والخوف عليها. أما تلك المرّة، فكان غضبه خالصاً، نطقت به نظرات عدائيّة لم تقبل أيّ مساومة.

«كتبها أبي لأجلك. ستجدين فيها أموراً تعرفينها، وأخرى لا تعرفينها. إقربئها. ستفتح عينيك على الكثير»، قالت لها ماريانا، لكنها بقيت صامته تلحظ المفكّرة في يد شقيقتها.

«أليسار، لم تكن لأبي أيّ علاقة بما جرى. يجب أن تدركي هذا الأمر جيّداً! ما زلت غير مصدّقة أنّك شككت في تورّطه في اختفاء شهاب!»، قالت ماريانا حين سلمتها المذكرات.

«بل صدّقي! حتى هو لم ينفِ التهمة عن نفسه!»، ردّت وهي تشيح بوجهها.

«اقربئي المذكرات لتعرفي سبب ذلك! أيمنك تصوّر كم ألمه تحوّل، في نظرك، إلى رجل ميليشيات؟!».

«ماذا عن ألمي أنا؟ لقد خسرت كل شيء!»، صاحت أليسار.

«أنت اخترت أن تخسري كل شيء».

حدّقت أليسار إليها، ثم ابتسمت.

«وأنت ربحت كل شيء!»، قالت بمرارة أتت على رغبتها في وصل

ما انقطع بينهما.

«أليسار أنا..»، أرادت ماريانا إفهامها أنّها لم تخنها، لكن بسمّة أليسار الهازئة أنّها غير مستعدة لسماع قصة لا تكون هي الضحيّة فيها. «كم تشبهه!»، قالت للشاب الذي راح يناديها: «خالتي»، محاولاً إعادتها إلى وعيها. تلمّست قسّات وجهه بأطراف أصابعها، مستحضرة وجهاً عرفته قبل ثمان وعشرين سنة.

«أبي يقول إنّني نسخة عن عمي شهاب».

كان بالإمكان أن يكون لها ابن في مثل سنّه، حدّثت نفسها وهي تعود النظر إلى المفكّرة التي باتت الليلة قرب وسادتها، من دون أن تقرأ صفحة واحدة منها.

مع طلوع الصباح، حسمت أمرها. لن تضع نفسها في مواجهة ماضٍ، لطالما اتّقت به بستر من تخاذل أبيها وجبنه! لن تخاطر بتمزيق هذا الستار، وبالبقاء وحيدة داخل الخانة التي شاركت والدها فيها كل هذه السنوات. تصوّرها أنها الفرد الوحيد الجبان في عائلة رضا أحمد، أرعبها! أما شهاب، الخطيب الذي خاصمت كلّ من تحبّ من أجله، فقرّرت طي صفحته نهائياً، بعد اكتشافها أنّه خدعها منذ البداية!

«سأعود اليوم إلى دبي»، قالت في اتصال هاتفي مع رحاب.

«اليوم.. واثقة؟! بهذه السرعة؟! وماذا عن شهاب؟!».

«سأخبرك حين أعود»، أجابت أليسار باقتضاب منهيّة المكالمة، ثم استلقت على السرير، لأخذ إغفاءة تعوّض بها ما فاتها من نوم الليلة الفائتة.

5

تموز 2006، بيروت.

استيقظت أليسا على رنين الهاتف في غرفتها في الفندق، بعد مرور ساعة على نومها. كتبت تتأؤبها وأجابت مغمضة العينين.
«شهاب أيوب يريد التحدث إليك».

أجفلها الاسم، قبل أن تلتفت إلى أن المتصل هو ابن ماريانا. هو ردّ فعل ستسعى للتخلّص منه مع الوقت. لن يكون ذلك سهلاً، فقلبها ظل سنوات ينتفض عند ذكر اسم شهاب، ترقباً للمعلومة التي ستليه، والتي قد تكون اسم شخص يحمل خبراً عنه، أو وصفاً لمكان احتجازه، أو حتى علامة تدلّ على قبرٍ دفن فيه.. أيّ شيء يحرك مياه فقده الراكدة. أصغت إلى إلحاح شهاب في طلب رؤيتها. تردّدت قليلاً، لكنها وافقت واستمهلت به بضع دقائق.

نهضت من السرير ورتبت ملاءته، ثم غسلت وجهها وعقدت شعرها بمشبك. توجّهت نحو الباب بعد أن سمعت طرقة خفيفة. في طريقها لمحت المفكّرة الملقاة في سلة المهملات. أخرجتها مؤقتاً ريثما يغادر ابن شقيقتها، ووضعتها على منضدة الزينة. لم تشأ أن تشارك أحداً في قرارها: ستختفي من حياتهم من دون إنذار، وهذه المرة ستختفي للأبد!
«أرجو ألا أكون قد أزعجتك».

هزّت رأسها سلْبًا، ودعته إلى الدخول.

«أعلم يا خالتي أنّ الأمور لم تجرِ على ما يرام البارحة، لكن صدّقيني، لم تكفّ أمّي عن البكاء منذ فارقتك! وهي أرسلتني اليوم لأكون بخدمتك. أعلم أنّك لم تأتي إلى لبنان منذ فترة طويلة، وربما ترغبين في زيارة بعض الأماكن، ومشاهدة التغيير الذي طرأ على البلد خلالها». صمت قليلًا، ثم تابعت: «أعلم أنّك لم تأتي للسياحة، ولكنها فرصة جيدة لأتعرّف إلى خالتي الوحيدة، ألا تظنّين ذلك؟».

تأمّلت ابتسامته التي أظهرت غمّازة في خدّه الأيمن. كانت لأمّها غمّازة مثلها. بدت ملامحه أكثر وضوحًا اليوم. لم يكن الشبه بينه وبين شهاب تامًّا، كما هيّئ لها في لقائهما الأول. فالشاب العشريني الذي يقف أمامها طلق الوجه، أمّا شهاب، فنادرًا ما كانت الابتسامة تزور وجهه. المرّة الأولى التي رأت ابتسامته كانت حين تفاجأت بوجوده في مكتب أبيها، لدى عودتها من مخيم «عين الحلوة». تلك أيضًا، كانت المرّة الأولى التي يراها فيها شهاب: فتاة شعرها أخضر منفوش تتوسطه عقدة صفراء عملاقة، كأنفها المستدير الأحمر، تكسو وجهها طبقة سميقة من البودرة البيضاء، وتعلو فمها ابتسامة حُدّدت بخط أحمر عريض!

«حبّ من أول نظرة!»، قالت أليسار ممازحة صديقاتها، حين سألتها كيف بدأت قصة حبّهما.

لم يكن ظهورها المفاجئ بثياب مهرّجة، السبب الوحيد للدهشة التي اعترت «شهاب» حينها، والتي حاول إخفاءها بابتسامة مربّكة، وإنّما حدث ذلك في منزل الدكتور رضا أحمد، أكثر الرجال الذين

عرفهم جدية!

خفت صوت أليسا قليلاً حين التفتت إلى وجوده.

«أسفة! لم أكن أعلم أنك مشغول»، قالت.

«أبي، لن تصدق الفرحة التي استقبلنا بها أطفال المخيم!»، هتفت

المهزجة ذات الشعر الأزرق التي رافقتها، غير مبالية بوجود شهاب.

«ستخبرانني بكل شيء لاحقاً»، أجاب الوالد بوقار، مشيراً إليهما

لتنصرفا.

«لكن يا أبي...».

«ماريانا، لاحقاً...»، قالت أليسا وهي تجذبها من يدها. وقبل أن

تتبعها الى الخارج، التفتت نحو والدها. كان بجعبتها شيء لا يحتمل

الانتظار، عبارة جعلت دمعة تلمع في عينيه ثم تختفي.

«كانت «ماما» ستسعد بهذا النشاط كثيراً!»، تمتمت أليسا بشرود،

قبل أن يعيدها سؤاله إلى الحاضر: «أي نشاط يا خالتي؟».

«ممم.. ماذا؟ لا شيء.. لا عليك.. ماذا كنت تقول؟».

«ما رأيك في أن نذهب إلى..»، قاطعه أزيز الرصاص الذي اشتعل

فجأة في تلك اللحظة، فأسرع إلى الشرفة ليستطلع سبب الإطلاق

الكثيف للنار.

«شهاب! عد إلى الداخل!»، صاحت به وهي ترتجف. كانت سنوات

البعد الطويلة قد أنستها الرعب الذي يحمله أزيز الرصاص، وها هي

تستحضره دفعة واحدة!

بعد لحظات رنّ هاتف شهاب الخليوي، فأسرع يجيب.

«الله أكبر!»، هتف وهو يرفع قبضته في الهواء.

«خالتي شغلي التلفاز!».

«ماذا هناك؟! أخبرني!»، هتفت أليسار وقد انسحب اللون من وجهها.

6

تموز 2006، بيروت.

«السيد حسن نصر الله: هؤلاء الأسرى الموجودون عندنا لن يعودوا إلى الديار إلا بوسيلة واحدة: التفاوض غير المباشر والتبادل. نصر الله: نحن ثابتون وصامدون ومستعدون لكل الاحتمالات..».

تابعت أليسار شريط الأخبار الظاهر أسفل شاشة قناة الجزيرة الإخبارية، التي بثت في وقت سابق مؤتمراً صحافياً للأمين العام لحزب الله، عن عملية أسر جنديين إسرائيليين، في منطقة خلّة وردة، جنوبي لبنان.

«أتكون الحرب؟!»، همست وهي تقرأ أسماء الطرقات والجسور التي أصابها القصف الإسرائيلي بعد عملية الأسر. أعادها تعداد المناطق إلى زمن الحرب الأهلية، وإلى عبارة «سالكة وآمنة» التي كانت ترسم خطّ سير كل من يغادر بيته لقضاء حاجة، وهو غير عالم إن كان سيجد طريقاً سالكا وآمنا يعيده لأهله. أحسّت بصداع مفاجئ وبضيق في صدرها فأطفأت التلفاز، وخرجت إلى الشرفة طلباً لبعض الهواء المنعش. لكنّ الجوّ المشبع بالرطوبة، والحرارة التي حافظت على ارتفاعها برغم اقتراب موعد الغروب، زادا من شعورها بالضيق.

«أتعرفين ماذا تعني هذه العملية يا خالتي؟»، سألتها شهاب بعد أن

اتّضح سبب إطلاق الرصاص. ذكّرها اندفاعه بحماستها ذات يوم حين عادت من المدرسة وهي تلوّح بصورة فتاة بالزيّ العسكريّ توشحت بكوفيّة، ومن خلفها علم فلسطين. «الشهيدة دلّال المغربي» كُتِب أسفل الصورة التي ورّعها فتیان الكشّافة الفلسطينيّة على المارّة، بعد أن ذاع خبر العمليّة التي نفّذتها مجموعتها في «تل أبيب»، موقعة خسائر كبيرة في الإسرائيليّين. ثبتت الصورة فوق سريرها بشريط لاصق، ثم نادى والدها لتريه إياها. حدّق مليّاً إلى الصورة ثم هزّ رأسه أسفًا.

«.. تعني أنّ الكثير من الولايات بانتظارنا!»، هذا ما أجابها به حين سألته إن كان يدرك معنى تلك العمليّة الفدائيّة.

تساءلت وهي تستذكر تلك الحادثة، إن كان في كلمات أبيها جواب عن سؤال شهاب.

«عمي شهاب سيعود!»، هتف بعد أن تأخّر ردّها.

«يعود؟!»، سألت بنظرات مشكّكة.

«بالطبع! جميع الأسرى سيُحرّرون بفضل هذه العمليّة!».

لم يعترّ نبرته أيّ شكّ. أخبرها أنّ الأمر مسألة وقت، بعد أن يتأكد إدراج اسم عمه على لائحة الأسرى الذين ستفاوض المقاومة الإسلاميّة، لاسترجاعهم من السجون الإسرائيليّة، مقابل الجنديّين اللذين أسرتهما. خلال عمليات التبادل السابقة للأسرى بين المقاومة الإسلاميّة والإسرائيليّين، أملت عائلة شهاب أن يكون ضمن المحرّرين، لكنها كانت تقابل بنفي إسرائيلي تام لوجوده في عداد الأسرى.

«أما اليوم فالأمر مختلف!»، جرّم ابن شقيقتها.

«أحقًا مختلف الأمر؟!»، تساءلت أليسار وهي تستذكر كلماته.

حين اتصلت ماريانا بها لتنبئها أنّ «شهاب» ما زال حيًّا، لم يخطر

ببالحا أن تكون تلك البشري أمنية أكثر منها أمرًا واقعًا! لكن ماريانا عادت لتوضح لها في لقائهما الأول أنّ ما أسمته أيسار أمنية هو قريب التحقّق، لأنّ التسريبات أكّدت وجود معتقل إسرائيليّ سرّي يضمّ لبنانيين تعود فترة اعتقالهم إلى أواخر السبعينيّات، وهي الفترة التي اختفى فيها شهاب. كانت وكالة رويترز قد نقلت هذه التسريبات عن أحد الحراس السابقين في ذلك المعتقل.

«شهاب ينتظرنا لننقذه!»، قالت لها ماريانا حينها. «علينا أن نقوم بحملة واسعة نطالب فيها بالكشف عن مصيره! وأنا واثقة بأنّ الجهود التي سنبذلها مع الجمعية اللبنايّة للأسرى، مع ما لك من علاقات خارج لبنان، ستعيد قضية اختفاء شهاب إلى الواجهة، وسترغم الإسرائيليين على قول الحقيقة والاعتراف بوجوده لديهم!».

كان تبدّل اليقين بوجود شهاب حيًّا إلى احتمال، وإن كان احتمالًا قويًّا بحسب ماريانا، خيبة جديدة تضاف إلى رصيد أيسار.

«لن نستطيع إنقاذه إلا إذا ساعدتنا!»، قالت لها ماريانا معتقدة أنّها بتوسلها ستخفّف من وطأة الصدمات التي تعرّضت لها أيسار منذ وصولها إلى لبنان. لكنها كانت مخطئة، فقرار أيسار بالرحيل كان نهائيًّا. أوشكت سيارة الأجرة التي ستقلّها إلى المطار على الوصول. نفح وجهها الهواء البارد المنبعث من فتحة التكييف وهي تدلف إلى الداخل، فزادت حدّة صداعها. دلّكت صدغيها وهي تجول بنظرها في أرجاء الغرفة، لترى أنّها لم تنس أيًّا من متاعها. كانت المفكرة لا تزال على المنضدة. همّت بإلقائها في سلة المهملات، لكنّ صدى ضحكات طفلة سعيدة رجاها ألا تفعل، ليس إكرامًا للوالد الذي ستعرّفها إليه هذه الأوراق، بل الذي كانت تعرفه قبل أن يتبدّل كل شيء؛ الوالد الذي

اصطحبها إلى بستان الليمون لتلعب مع الخرفان، وحكى لها قصصاً
مضحكة عن الحمار «ديكسي» ورحلته إلى القمر.. الوالد الذي خاط
لها قميصه فستاناً، ثم زيّنه بصور فراشات لاصقة كي تكفّ عن البكاء!
«سأتركها في الأمانات ليسلموها إلى شهاب عندما يأتي صباح الغد»،
حدّثت نفسها.

«حضرت سيارة الأجرة»، تمتعت حين رنّ جرس الهاتف. لكنّ الرنين
توقّف قبل أن تجيب. جرّت حقيبة سفرها نحو باب الغرفة، ثم عادت
أدراجها لتحضر باقي متاعها، فإذا بالهاتف يرنّ من جديد.
«خالتي!»، جاءها صوت شهاب مستغيثاً.
«شهاب.. ما الأمر؟»، أجابت بحذر.
«أمي..»، أجاب بصوت متهدّج. «لقد تعرّضت سيارة والديّ للقصف،
وهما في طريقهما إلى بيروت!».

7

تموز 2006، بيروت.

انقضت الدقائق الخمس المتاحة للزيارة في غرفة العناية المركزة، فانسحبت أليسار بهدوء مبقية نظرها على وجه ماريانا، الذي غيّر الورم والخدوش ملامحه.

«إذا صمدت أربعاً وعشرين ساعة أخرى، فهناك أمل كبير بنجاتها»، قال الطبيب الذي أمضى ثلاث ساعات يحاول إيقاف نزيف أحشائها التي مزقتها شظايا أحد الصواريخ.

«ما الذي عاد بأمك إلى بيروت؟ كيف خاطرت بسلك ذاك الطريق؟!»، سألت أليسار «شهاب».

نكّس رأسه وتردّد في الاجابة ثم قال: «أبي كان عنده موعد، وهي أصرت على مرافقته».

«ولماذا أصرت؟!».

نظر إليها لحظة، ثم عاد ينكّس رأسه. خشيت من الجواب، فلم تكرر سؤالها. هربت من مشاعر الذنب التي ولّدها صمته إلى سؤال آخر.

«ثم.. أي موعد في هذه الظروف؟! ألم يدرك والدك العبقري أنّ مواعده ملغى حتمًا؟!»، صاحت به.

«خالتي، أرجوك! أمي بين الموت والحياة، وقد يفقد والدي بصره!

أترينه وقتاً مناسباً لتصفية حسابك معه؟!»، صاح بدوره محدقاً إليها بنظرات امتزج فيها الغضب بالخيبة، النظرات نفسها التي رمقها بها شهاب في لقائهما الأخير.

كان ذلك في السادس والعشرين من شهر آب عام 1978. صبيحة ذلك اليوم، حضر شهاب لاصطحابها إلى بيت أهله لقضاء يومين فيه، بعد أن ذهبت ماريانا برفقة جدتها إلى بلدة إهدن شمال لبنان. ودّعت أليسا والدها وهبطت الدرج حالما سمعت بوق سيارته.

«أحضرت لك مسكناً للصداع، إنّه من كندا، مفعوله سريع للغاية!»، قالت بعد أن استقرت داخل السيارة.

«سأتناوله عند الإفطار»، أجابها واضحاً شريط الدواء في جيب قميصه. كانت نظراته زائغة، والتعب بادياً على وجهه، لاستيقاظه باكراً بعد ليلة أحيائها بالصلاة والدعاء.

«أسفة لأنني أصرت على مجيئك، لكن البيت موحش جداً في غياب ماريانا وجدتي!»

«لا بأس، لقد وعدتك وعليّ أن أفي بوعدتي»، قال بابتسامة واهنة ملقياً نظرة خاطفة على ثيابها.

«لن يطول الأمر قبل أن ترتدي الحجاب، الحمد لله، استجيب دعائي!»، حدّث نفسه وهو يرى تنورتها الواسعة التي جاوزت ركبتها، وسترتها المزرّرة بأكامها الطويلة. كانت فكرة ارتدائها الحجاب تريحه قليلاً من مشاعر الذنب التي تنتابه كلّما فكّر بعلاقتهم وارتباطه بها.

انطلقا نحو كورنيش صيدا. كان الطريق شبه خالٍ، واستغرق وصولهما إليه دقائق قليلة. بادرت كما في جميع لقاءاتهما إلى الكلام. سألته عن صحة والدته، وإن كانت شقيقته عادت من بيروت، فأجابها باقتضاب

كعادته. سألتها عن والدها.

«بخير، إنها المرّة الأولى التي يبقى فيها وحده في البيت، لكن لا بأس، عليه أن يعتاد الأمر، فسرعان ما نحلق أنا وماريانا خارج العشا!»، أجابت بضحكة صغيرة، ثم أردفت وهي تخلع سترتها: «أف! ما هذا الحرّ!».

التفت نحوها، فضاقت حدقتا عينيه. كانت سترتها تخفي قميصًا رقيقًا كشف ذراعيها وجزءًا من صدرها. أشاح وجهه عنها وهو يشعر بالدم يتسارع إلى رأسه.

«ماذا فعلتِ؟!»، صاح محاولاً إبقاء تركيزه في الطريق.

«ما بك؟ ألا يعجبك القميص؟ ألا يليق بي؟».

«أليسار، ارتدي سترتك في الحال!».

«ما بك يا شهاب؟ لماذا أنت عصبي؟! هل هو الصوم؟! آه، تذكّرت!

عليّ أن أحتشم في لباسي لأننا في شهر رمضان، أليس كذلك؟».

«ليس في شهر رمضان وحسب، بل في كل الشهور!»، قال بغیظ

مكتوم.

«مممم.. صحيح.. الحجاب واجب شرعي، هذه هي تعاليم ديننا،

أليس كذلك؟»، أجابت ببرود، ثم عدّلت جلستها لتصبح بمواجهته،

وتابعت بحدّة: «لكن ماذا عن المظلومين المعتدى عليهم؟! ألا يآبه

هذا الدين الذي تتمسك به، بهؤلاء؟! ألا يدعو إلى الدفاع عنهم، أم هو

يكثر لتغطية بضع خصل من الشعر فحسب؟!».

«قلت لك ارتدي سترتك!»، قال بنبرة أعلى.

«أهذا كل ما يهّمك؟! السترة؟! هذه هي السترة التي تشغل بالك..

هل ارتحت الآن؟!».

«أجنت؟!»، صاح وهو يرى السترة تطير من النافذة.
ابتسمت باستهزاء، ثم تابعت: «يستفزك قميصي هذا، ولا يستفزك
آلاف المهجرين من بيوتهم ظلماً وعدواناً؟! يستفزك صدري المكشوف،
ولا تحرك ساكناً وأنت ترى الصهاينة يعتدون كل يوم على شرف
فلسطين؟! تغضّ بصرك كلما نظرت إلى وجهي، ولا يرفّ لك جفن أمام
مشاهد القتل والتنكيل بأهلنا؟!».

ازدادت عروقه انتفاخاً، وتصبّب العرق من جبينه وهي تسلقه
بكلماتها، لكنه ظلّ صامتاً. أكمل القيادة وهو يعتصر المقود بقبضتيه
بدون أن يحيد نظره عن الطريق، إلى أن نطقت جملتها الأخيرة: «لكن
ماذا يمكن توقّعه من شخص جبان مثلك؟!».

في تلك اللحظة علا صرير المكابح فارتدّت بقوة على مقعدها، ليعلو
بعد أقلّ من ثانية زعيق بوق مصحوباً بصوت تكسّر زجاج وبسباب.
وقبل أن يعي ما جرى ترجّلت أليسار، فيما انقضّ عليه سائق السيارة
التي ارتطمت بسيّارته.

رأها تجتاز الطريق بسرعة حاملة حقيبتها، ثم تختفي في أحد الأزقة.
كانت تلك آخر مرة يراها.

لم يكن سهلاً عليها إخبار علي بما جرى، حين حضر إلى منزلهم
في اليوم التالي لاختفاء شهاب. كان قد أمضى النهار بأكمله يتنقل بين
المستشفيات والحواجز ومراكز الشرطة، حتى مكّبات النفايات. عبثاً
حاول العثور على أيّ خبر يطمئنه إلى مصير شقيقه.

«أنت السبب في هذه المصيبة!»، قال علي بعدما أخبرته عن
شجارها مع شهاب، من دون أن تذكر تفاصيله أو حادث السير.
«لو لم تصرّي عليه لكان شهاب بيننا الآن! رجاك أن تعفيه، وشهاب

لا يرجو أحدًا، فهدّدته بفسخ الخطوبة!». كان عصبياً بنحو لم تعهده من قبل. كان شخصاً مختلفاً عن الشاب الذي جاء بصحبة شهاب ووالدته يوم خطبتها. يومها لم يكفّ علي عن إلقاء النكات، على الرغم من كونها زيارته الأولى لعائلة أليسار. ولولا جوّ المرح الذي أضفاه هو وماريانا على الخطبة التي أثقلتها جدية والدها وثوب حداد والدته، لبدت أقرب إلى تقديم واجب عزاء! لاذت أليسار بأبيها الذي تدخّل لتهدئة علي، مطمئناً إيّاه إلى أن الأوضاع الأمنية تحسّنت، ومن المستبعد أن يكون مكروهاً قد أصاب «شهاب». لكنّ هذه التطمينات التي لم يكن الوالد نفسه يصدّقها، لم تجد نفعاً حين علم علي بأمر حادث السير من بائع قهوة على الكورنيش. هذه المرّة اضطر والدها إلى طرده بعد أن تهجّم على أليسار متوعداً بالانتقام منها. ولاحقاً حدّرتها شقيقة شهاب من أيّ محاولة للتواصل معهم، بعدما انهارت والدتها حين زارتهم موسية. وبذلك انقطعت صلتها بعائلة شهاب، إلى أن أعاد زواج ماريانا وصل ما انقطع.

«خالتي، أنا لم أقصد..»، قال بعد لحظات.
«لا عليك»، أجابته بفتور وانتحت جانبا من غرفة الانتظار.
وقف شهاب في الركن المقابل يحدّق إليها. حين رأى أليسار أول مرّة، علم أنّ الفرصة أمامه ليست لاستعادة خالته وحسب، بل أمّه أيضاً، وقد أخفت في حقيبة سفر أليسار جزءاً من روحها، وعاشت عمرها ببقايا تلك الروح، لكنه الآن يخشى أن يفقد الاثنتين معاً!
بحلول موعد الزيارة المسائي، استقرّ وضع ماريانا، من دون أن يزول الخطر عنها. في الخارج كان سلاح الطيران الإسرائيلي يقصف بلا

هوادة الجسور والطرق التي تصل قرى ومدن الجنوب والبقاع بعضها ببعض وبالعاصمة، بعد أن قطع طريق الجو باستهدافه المطار. أصرّ شهاب على مرافقتها إلى الفندق الذي يبعد مسيرة عشر دقائق عن المستشفى.

«إذا احتجت إلى أي شيء فاتصلي بي، أراك غداً إن شاء الله»، قال شهاب حين وصلا إلى الفندق، ثم استأذن للعودة إلى المستشفى سائلاً إياها الدعاء.

صعدت إلى غرفتها واستحمّت ثم طلبت عشاء خفيفاً لم تستطع إكماله. حاولت أن تبكي فلم تفلح. شغّلت التلفاز، لكنها سرعان ما هربت من مشاهد الدمار إلى حاسوبها، ثم إلى الشرفة، ثم إلى كتاب رافقها في سفرها. قرأت عدّة سطور ثم أغلقتة ونظرت إلى يمينها. كانت تظنّ أنّ سفرها سيوصل باب الماضي الموجه إلى الأبد، لكنّ إصابة ماريانا شرّعته على مصراعيه. أحسّت بتيار قويّ يجذبها إلى البيت المسكون بأرواح من أحبّت. حاولت أن تقاومه، لكنّها ما لبثت أن استسلمت له. كانت المفكّرة بانتظارها. فتحتها وبدأت بالقراءة.

ألزهايمر..

«ألزهايمر».. قال الطبيب مجيبًا عن سؤال ماريانا: «ممّ تشكو جدتي؟».

استفاض في شرح عوارض هذا الاسم الغريب، وعندما فرغ سألتُه: «أنتقصد أنّها أصيبت بالخرف؟ لكنها ما زالت فتيةً لتصاب بالخرف!». كانت جدّتك في الثامنة والستين حينها، وقد مرّ على غيابك أحد عشر شهرًا. بدأت عوارض الانزواء تظهر عليها بعد أسابيع من رحيلك. تعلمين كم كانت متعلّقة بك. «أصابتها الكآبة»، علّقتُ بإيجاز على حالها التي كانت تشبه حالنا جميعًا بعد كل ما حصل. لكنّ الأمر لم يقف عند حدّ الانزواء، فكتلة النشاط الستينيّة تحوّلت بسرعة إلى سيّدة عجوز. بدأت الروح الأنيقة التي رافقتها منذ تعرّفت إليها تختفي خلف خصل شعر بيضاء مبعثرة، وثياب نوم تعلوها بقايا طعام، وتقلّبات مزاجيّة غزت سماءها كغيمة سوداء مقاومة لنور الشمس. وبمرور الأيام، ما عاد لجدّتك ماريانا أيّ أثر. لم يتبقّ منها سوى ملامح وجهٍ متعبٍ وحزين، ونظرات زائغةٍ مشتتةٍ تذكّر بصعوبة، بتلك السيدة الجميلة التي جاءت من يافا مطلع القرن، لتدرس الأدب العربي في الجامعة الأمريكيّة في بيروت.

«كلا، ليس الخرف المتعارف عليه. كما قلت لك، إنّهُ يسمّى مرض ألزهايمر».

أعاد الطبيب شرح عوارض المرض والخطّ الزمنيّ للتدهور الذي ستشاهده قوى جدّتك الذهنيّة والبدنيّة. تحدّث عن أدوية قد تساعد على تأخير تسارع المرض. قدّم لنا إحصاءات عن انتشار المرض في

أمريكا وأوروبا، وأتبعها بنصائح عمليّة تساعدنا على التعاطي مع جدّتك في المراحل المقبلة. قال كل شيء يعرفه عن المرض، لكنّه أغفل ذكر أهمّ نقطة، ولعلّه لم يكن يعلم بوجودها. لعلّها معلومة حصرية لأسر مرضى ألزهايمر. لقد أغفل الطبيب ذكر أنّ مرض ألزهايمر هو مرضٌ معدٍ يصيب كل من هو قريب أو محيط، أو حتى يعرف المريض! فجدّتك لم تكن الوحيدة التي جهدت للاحتفاظ بذاكرتها. نحن أيضًا، كان علينا ونحن نعايش هذه الطفلة السنينيّة النزقة، أن نجهد لتذكّر أيّ سيّدة كانت قبل المرض! ومع انتهاء الرحلة التي لم تطل كثيرًا، نجح المرض في القضاء على ذاكرتنا جميعًا!

ولكي أحمي ذاكرتي المتبقية من ألزهايمر يأتي على غفلة، وأحرّر ذاكرتك من نسيان إرادي، قرّرت أن أكتب لك هذه المذكرات عسى أن تدركي يومًا كم أحبّك أبوك!

الحب..

الحب كفقد الأحبة، يحدث فجأة أو بعد معاناة. الفرق بين الاثنين أنّ دموع الأول مؤجلة. حبي لحياة كان من النوع الأول، باغتني كحضن أب يتصنّع القسوة. حين رأيتهما أول مرة كنت في السادسة والعشرين، شاباً مفعماً بإرادة التغيير وباحتاً عن وطن لا يشبه الوطن الذي أعيش فيه. لم أكن وحدي الباحث عن هذا الوطن، كنا جيلاً كاملاً، والعجيب أنّ أكثرنا وجد في فلسطين، الوطن الضائع، وطناً أكثر تحقّقاً من لبنان. لماذا ثرنا ضدّ الظلم الواقع على فلسطين، ولم نثر ضدّ الظلم المستفحل في لبنان؟ في ذلك الوقت لم يشغلنا هذا السؤال. كنّا مشغولين بمحاولة إنقاذ العالم من غول الاستعمار، لأننا متى قضينا على هذا الغول، سيزول السحر الذي مسخ أوطاننا، وتحلّ النهاية السعيدة! لكنّ الحقيقة كانت في مكان آخر، اكتشفتها متأخراً جدّاً، بعد أن بات الغول صديقاً لكثيرين. الحقيقة هي أنّنا طاردنا الغول كي لا نواجه تخاذلنا. هربنا نحو فلسطين حفظاً لماء وجه ينكر علينا صمتنا عن الحقوق الضائعة والأحلام المسلوبة. كانت فلسطين القضية التي برّنا بها إعراضنا الجبان عن هذه المعركة.

ثم كانت قضية أخرى، بل كان اسمًا أعلى نبرتنا مقابل النظرة المستنكرة التي طالعتنا في المرأة كل صباح: جمال عبد الناصر. أصبح معظمنا ناصريين مع انتصار الثورة في مصر. وجدنا في ثورة يوليو برقاً جديداً نستتر به من نظرات الاستنكار. وفي كل مرة كانت تلك النظرات تخترق ذاك البرقع، كنّا نواجهها بإنجاز للثورة المصرية! إلى أن جاء الإنجاز الأعظم مع إعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس

في السادس والعشرين من تموز سنة 1956. ألقينا رحالنا وتنفسنا الصعداء! لقد وجدنا أخيراً، الوطن الذي بحثنا عنه، ولم يضرنا أن يكون هذا الوطن شخصاً، ما دامت ذراعاها قادرتين على احتضاننا، ومبارزة العدو في آن معاً!

في تلك الأيام درج الناس على القول: «أينما غيّمت تمطر في لبنان!»، وإن كان هذا المطر يستحيل دمًا في كثير من الأحيان، ويراق نصرة لأوطان تسد جوعنا لوطن افتقدناه. إلا أن المطر لم يكن دومًا بلون الدم، كان أحياناً بلون الحب!

عام 1956 تلبّدت سماء مصر بغيوم سوداء خلّفها دخان طائرات حربية بريطانية وفرنسية وإسرائيلية، في عدوانها الثلاثي ردًّا على التأميم. لكن المطر الذي أدمى قلبي على ما جرى في بور سعيد، عاد ليحييه بعد سنتين وفي التاريخ نفسه، التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة 1958.

في ذلك اليوم، رافقت صديقاً صحافياً في دار الصياد لتغطية معرض فني أقيم في أوتيل البريستول في منطقة «الحمرا»، بمناسبة الذكرى الثانية للعدوان الثلاثي. هنالك التقيت والدتك. كانت تقف قرب لوحة لها، مجيبة عن أسئلة صديقي. أنصت إلى كلامها عن اللوحة التي أسمتها «وجوه من بور سعيد»، من دون أن أعير أيّ انتباه إلى السيّدة الأربعينية الأنيقة التي وقفت بجوارها.

«أليست جميلة جداً؟»، قالت السيّدة.

«رائعة!»، أجبت بعفوية ثم التفتُّ إلى أنّها لاحظت تعلّق نظري بحياة. تنحنحتُ، وبابتسامة مربكة أضفت: «اللوحة.. اللوحة رائعة!».

«أكيد، وكذلك هي حياة!»، أجابت.
إدًا، فاسمها حياة. كم كان الاسم لائقًا بها!
«أنا ماريانا الحلبي، والدة حياة، وحضرتك؟»، تابعت جدّتك.
عرفت من لهجتها أنها فلسطينية. تعلّق نظري لحظة بالصليب
الذهبيّ الذي تقلّدته. أجريت حسابات سريعة. حياة مسيحيّة وأنا
مسلم. انتهى الأمر قبل أن يبدأ. شعرت بانزعاج طفولي.
«تشرّفنا، رضا أحمد»، قلت.
«هل أنت مهتم بفن الرسم يا أستاذ رضا؟».
«في الحقيقة، ليس كثيرًا».
«إدًا أنت هنا..؟».
«أنا هنا للمشاركة في الندوة التي ستقام بعد قليل».
«رائع!»، قالت بابتسامة لطيفة، ثم خاطبت حياة: «لقد حلّت
المشكلة يا حبيبتي!».
التفتت حياة إلينا. ابتسامة صغيرة منها جعلت قلبي ينبض بقوة.
هكذا كانت حياة، توزّع ابتساماتها من دون أن تعرف أثرها في القلوب.
«عظيم! قرّرت أن تتابعي الندوة معي؟».
«طبعًا لا! تعرفين أنّي لا أطيق الخطابات، لكن أظنني وجدت لك
رفيقًا مناسبًا!».
حين سألت جدّتك في ما بعد كيف وثقت بي بهذه السرعة، أجابت
أنّها بحثت عن آثار ضربة سكين في وجهي فلم تجد شيئًا! ثم أردفت
بعد ضحكة أضاءت وجهها: «على أيّ حال، بدوت شخصًا طيبًا، وكنت
محقّقة كالعادة!».

لقاؤنا الثاني كان بعد سنة. تفاجأت بها تدخل القاعة التي كنت على وشك إلقاء محاضرة فيها. كانت قد غيّرت تسريحة شعرها، وارتدت فستاناً أزرق سماويا - لونك المفضّل - وحملت لفافات كرتون ومظلة وحقيبة يد والكثير من السحر! سرّني تعبير الاستغراب الذي بدا على وجهها، حين رأني جالسا على المنصة. «تذكرتني!»، حدّثت نفسي. أشارت عليها إحداهن بالتقدّم إلى مقعد أمامي، لكنّها اختارت أن تجلس في آخر صف، وهي تومئ إلى الأغراض التي أربكتها كثرتها.

ألقيت المحاضرة محاولاً توزيع نظراتي بين الحضور، لكنني لم أكن أرى أحداً سواها. شُغلت بعد المحاضرة بالإجابة عن بعض الأسئلة، ثم التفتت إلى وقوفها بالقرب مني. قابلت ابتسامتي العريضة بشيء من الوجوم. اكتفت بسؤالني عن الشخص الذي كان مقرّراً أن يعطي المحاضرة. أخبرتها أنه اضطرّ إلى التغيّب لأسباب خاصة. أطرقت قليلاً، ثم ابتسمت بتكلّف وشكرتني على المحاضرة.

«العفو، آنسة حياة!».

عقدت حاجبيها مستفهمة.

«سبق أن التقينا منذ قرابة سنة.».

زادت عقدة حاجبيها إحكاما.

«أوتيل البريستول.. ذكرى العدوان الثلاثي..».

تحوّل استفهامها إلى حرج. لم تكن تذكرني مطلقاً!

ابتلعت خبيتي ومددت يدي مصافحا.

«رضا أحمد.».

«تشرفنا أستاذ رضا»، قالت بارتباك.

تحدّثنا قليلاً عما ورد في المحاضرة. عرضتُ مساعدتها في حمل أغراضها، لكنّها شكرتني واستأذنت للذهاب. ففكرت بشيء أقوله، لأوهم نفسي أنّ صلة ما تجمعنا. «سلامي إلى الوالدة!».

عادت لترسل نظرات مستفهمة، ثم طأطأت رأسها معذرة عن ذكرتها.

عند الباب ألقّت التحيّة على صديق لي. استنطقته حالما غادرت القاعة. عرفت منه أنّها تقيم ورشة لتعليم الرسم في مخيم عين الحلوة، وأنّ أمها فلسطينية من يافا وأنّ أبها تاجر كبير من صور. «أظن اسمه عبد الحسين..»، قال صديقي فانفرجت أساريري. «قد لا يكون الأمر مستحيلاً كما ظننت!»، حدّثت نفسي.

تعمدت الحضور في المخيم في موعد الورشة. لم أكن أعلم إلى أين سيوصلني اللقاء الثالث. لم أحمل آمالاً عريضة، فهي لم تذكر وجهي بعد أوّل لقاء، ولا اسمي بعد ثاني لقاء! لكنها قالت إنّ أمها تذكرني، فاستبشرت. تحدّثنا قليلاً، وقبل أن تغادر قالت: «حين تجمعنا صدفة جديدة، أعدك أنني سأذكر اسمك!».

أوفت حياة بوعداها في «الصدفة» الرابعة التي تلتها صدف كثيرة. وحين تيقّنت أنّها حفظت اسمي، عرفت أنّ الوقت حان لأمنحها إياه!